

من سبر الخالد

حياة المازني *

للأستاذ محمد محمود حمدان

(قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لي
من التجارب)
« المازني »

- ٣ -

براية الشوط

انتهى المازني من مرحلة الدراسة الثانوية . وبقي عليه أن يختار لنفسه الاتجاه الذي يؤثره في المرحلة النهائية . وقد اختار مدرسة الطب ، لأنها كانت المجال الذي آثره غير واحد من ذوي قرابته ، ولأن « مصروفاتها المدرسية » كانت مما يدخل في طوقه . . . ولكن ناظرها الدكتور كيتنج رعى لي بأوراق في الشارع ، لآق يوم الكشف الطبي دخلت قاعة التشرح فرأيت جثة متفخخة تفوح منها رائحة نتن خبيث ، فدار رأسي وأغمي علي »

وطرق باب مدرسة الحقوق وهي أقرب إلى ملكاته ، وكانت نفقاتها كذلك مما يقدر عليه . على أنه لم يكد يتقدم إليها حتى ضوعفت « مصروفاتها » فارتد عنها حائراً لا يعرف إلى أين يصير وكان القدر ينسج بمض خيوط هذه الحياة المضطربة ، حياة المازني ، حين أعلن في ذلك العام افتتاح مدرسة المعلمين العليا . وعرف المازني أن التعليم فيها بالجمان ، وأن مدة الدراسة سنتان ، بل إنها ، فوق ذلك ، تمنح تلاميذها مكافآت شهرية يسيرة ولكن لا بأس بها في ذلك الحين . واجتذبت المازني كل هذه المزايا إلى المدرسة ، فالتقى فيها بنفسه ، على كره ، بعد أن ودته الطب والحقوق

وفي مدرسة المعلمين لم تكن مواد الدراسة كثيرة ولا البرامج طويلة ، ولا تخصص فيها ويقول الأستاذ العقاد « كان الطالب في تلك المدرسة يستمد

لتدريس الرياضة والجغرافية أو التاريخ في الوقت الواحد . . فأوحت سليقة الأدب إلى هذا الطالب الجديد على الدراسة أن يهدى أنانيتها إلى التفرقة بين ملكات العلوم وملكات الآداب ، فقد أصرب عن تعليم الرياضة ، بل أصرب — كما قال لي — عن فهمها ومذاكرتها . وذهب مع زملائه مرة في زيارة من زيارات التدريب التي تمتحن فيها خبرة العلم الناشئ بصناعته ، فكان زملاؤه يختارون درساً في الحساب أو درساً في الجبر أو درساً في تقويم البلدان ، وأبي هو إلا أن يختار لدرسه أحياناً من الشعر العربي ، يشرحها على طريقة ، ويتكلم عن ناظمها ، ويبين في سياق شرحها مزايا الشعر العربي بالقياس إلى أشعار الأمم الأخرى »

واستطاع طلبة الدفعة الأولى بالمدرسة — وكانوا سبعة وعشرين طالباً ليس إلا ، أصنرم سنا صاحبنا المازني — أن يبقوا أوقات فراغهم ، في المدرسة ، على الطالبة الخاصة . وكانت لهم في الأسبوع ثمان ساعات لا يتلقون فيها أي درس . ووجدوا الحث والتوجيه والتشجيع من الناظر والأساتذة . ويقول المازني عن ناظر المدرسة الإنجليزي لذلك العهد ، الدكتور دليبي ، أنه كان عالماً واسع الاطلاع ، « فكان إذا رآني أستمير كتاباً من مكتبة المدرسة يمدني بأنه يميزني كتاباً من عنده في موضوعه . وينجز وعده ، ثم يتركني أياماً ، حتى إذا لقيني بمصادفة في فترة من فترات الاستراحة بين الدروس ، أقبل علي وراح يحدثني عن الكتائين ، دون أن يسألني عنهما ، أو عما قرأت منهما ، ثم يمضي عني . فكان هذا يضطرنني إلى المكوف على الكتب وكانت هذه إحدى وسائله لتشجيعنا على القراءة والاطلاع »

ومن المحامد التي تذكر للمدرسة المعلمين ، ولناظرها الدكتور دليبي على التخصيص ، أنه كان أول من نثى عنان الاهتمام في نفوس تلاميذه نحو طائفة من أدباء الإنجليز وقادهم من أمثال ما كولي وكارليل وهازلت ولي هنت . فشاعت كتبهم بين ناشئة ذلك الجيل وساعدت على تنوير الأذهان وتحويلها إلى معنى الأدب الصحيح

ولا ريب أن ماله المازني من هذه الروح تنشخص فيه موهبته الأدبية ، فأقبل على الدرس والقراءة والتحصيل ، وحفره الجو

فأرثه الكتاب فربت على كتنى وقال ، هذا ما أرجو ، أن
تظل تقرأ وتقرأ ولا تشبع ، وأن تحرص دائماً على أن تصيف
مقولاً إلى عقلك »

ولعل الإنصاف يقتضينا أن نزيد هنا كلمة حق . فقبل أربعين
سنة ، لم يكن يتيسر لطلاب الأدب في مصر سبيل القراءة الأدبية
كما يتيسر لطلاب اليوم . فقد كانت أمهات الكتب العربية
— في الأغلب — لا تزال مخطوطة في دور الكتب العامة أو
المكتبات الخاصة ، وكان ما طبع منها في مصر أو الشام ، على
ضآلته ، حافلاً بالنقص والتشويه والتصحيف . وقد بلا المازنى
مئة هذه الكتب في عهد الطلب ، وراض نفسه على الجد
والتشدد ومصارعة الجهد في سبيل الوصول إلى غايته وإشباع رغبته
ونسوق هنا قصته مع كتاب « الأغاني » وكان من أول

ما اقتنى من الكتب ، وكانت نسخته التي وقفت له من طبعة
ناقصة مشحونة بالخطأ والتصحيف في كثير من مواضعها . فعمد
إلى أجزاءه بفكها « ملازم » وجعل يحملها معه ملزمة ملزمة إلى
دار الكتب ويراجع النصوص نصاً نصاً ، ويتأ بيتاً ، ويدون
التصحیح أو التكملات على ورق أبيض أعده لذلك ، وصار
يلصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة ، وهكذا إلى آخر
الكتاب بأجزائه التي تربو على العشرين

ومثل ذلك قصته مع ديوان « الشريف الرضى » — والشريف
أول من اتجه إليهم المازنى وآثرهم بحيله من شعراء الرمية —
فقد وقفت له نسخة من مطبوعة الهند ، ويقول المازنى إنه لم يعلم
فيها بيت واحد من التحريف والتشويه حتى أعياه فهم الديوان
وكاد اليأس أن يصرفه عنه . على أنه أقبل عليه بمالج تصحيحه ،
وقضى في ذلك قرابة عامين ، يوفق حيناً ويخفق أحياناً . حتى عثر
في النهاية على نسخة من طبعة بيروت — وهى أسلم وأصح في
مواضع — فاستراح إليها

أما قصته مع ديوان « ابن الرومي » فهى أعجب . ذلك أن
الديوان بقى مخطوطاً منسياً يكاد لا يذكره أحد ، حتى التفت إليه
أساتذة الذهب الجديد . فشرع المازنى في نقله عن إحدى نسخته
— وصادف أنها كانت أردأها خطأ وأكثرها غموضاً — ثم
هكف عليه سنون طويلات الدد ، بعالمه بالضبط والتصحيح

الذى كان يضطرب فيه وتمتلى بهوائه كلتا رتتيه ، إلى الثابة
والتوفر على ثمار القرائح في شتى الآداب . وكان من زملائه في
المدرسة من له مثل ميله إلى الأدب والكتابة فاقصم بهم ،
ومرف منهم في ذلك الحين الطالبين محمد السباعي وعبد الرحمن
شكرى ، وكان كلاهما واسع الاطلاع على الأدبين العربى
والإنجليزى . وقد أخرج شكرى الجزء الأول من ديوانه وهو
يمد طالب بالسنة الأولى وكان له في الوسط الأدبى منحة كما كان
السباعى يكتب في « الجريدة » . . . وكان هذا بمثابة الدافع والحافز
للمازنى ، فمالج الكتابة والشعر ، وبدأ ينشر في الصحف منذ
عام ١٩٠٧ . وتوثقت الصلة بينه وبين شكرى ، أو كما يقول
« فصار أستاذه وهو زميلى ، وكان يتقصنى التوجيه فتولاه
شكرى »

ووسع المازنى ، وهو طالب بمد ، أن يقتنى حاجته من
الكتب . . « وكان موظفو مكتبة « ديمر » يعرفونى ويأتمنونى
لكثرة ما اشتري منهم ، وهو في كل شهر فوق الكفاية لشهور .
ومع ذلك غافلتهم وسرقت طبعة جيب لروايات شكبير ! وإن
كانت عندي مجموعة كاملة منها بشروحها وتفسيرها ! »

وكان كما يقول كثير النياب عن المدرسة : « لأنى كنت
أسهر إلى الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم ، ثم أنام فأعطف . فدعانى
ناظر المدرسة ، الرحوم إسماعيل حسنين باشا — عليه ألف
رحمة — وقال لى يابنى إنك « سمار » فى العلوم الرياضية ، وأنا
أخشى عليك الرسوب ، ولا أؤمك على التخلف مادام هذا عندك ،
نخذ إجازة خمسة عشر يوماً ، وأقرأ ما شئت ، ثم واطب بمد ذلك
على الحضور »

وظل هذا نهيمه بالقراءة التقصية العميقة وعكوفه على الكتب
ومنها الجاف المويص مثل « أمل الأنواع » لدارون . ولم يصرفه
تخرجه واشتتاله بالتدريس عما كان فيه

وبروى المازنى أنه اتفق يوماً أن كان فى مقهى فيما يعرف
الآن بميدان الإسماعيلية ، « . . . وكان معى كتاب الشاعر على
مائدة الإفطار لويندل هولز ، وكنت أقرأ فيه . فر أستاذى فى
الأدب الإنجليزى ، فهضت لتحيته ، فقال لى بمد كلام ، لقد
أصبحت موظفاً وأكبر ظنى أنك انصرفت عن القراءة والاطلاع ،